



هل شاهدتِ أخبارَ الثامنة والنصف المسائية على شاشتهم؟

- نعم رأيتُ أمّاً فوق الخمسين وأباً كذلك.. وأبناءٍ وبناتٍ شباناً وصغاراً تبعثرتُ في الغرفةِ جثثهم وأشلاءِهم والدماءُ تفيض منها..

- لماذا قتلواهم؟

- قالوا: إنَّ هؤلاءِ مثلَ كُلِّ من يقتلونَ من صبيةٍ ونسوةٍ وعجائز.. وشبانٍ أيضاً، هؤلاءِ عملاءُ الصهاينة!!

- أما أنا فقد أثارتِ دهشتي الخبرُ الثاني.. اختاروا مشهداً ينهالُ به العدو بالهراوات على أهلنا في فلسطين..

- وما الغريب في المشهد؟

- المدهش أنهم يقتلون شعبنا بالرصاص ويمثلون بجثثهم، أما عدونا الصهيوني فيظهرون له طيفاً متحضراً!!

- هم يريدون أن يُطبع شعبنا مع الصهاينة..

- وهل طَبَّعَ شعبنا مع الصهاينة؟!

- لو كانَ ذلك، لما رأيناهم جاثمينَ على صدورنا يقتلون ويخطفون ويعذّبون ويُسرقون.. إلى اليوم..

كانَ هذا حواراً بين أمي وجارتها جرى في بدايةِ الثمانينيات.. لم أكن قد خُلِقتُ بعد، ولكنّها أحاديثٌ ومعلوماتٌ لامستْ

سمعي في الطفولة الأولى، ونقشت في ذاكرتي صوراً لا يشبهها في الخيانة والظائع إلا ما نراه اليوم بأم العين، وملء السمع، من فاعلٍ مجرم واحد..

انطلقت سيارةُ الأجرا الصغيرة من دمشق إلى حلب، وعندما عبرت مدينة حماة، كان على الركاب أن يروا ما حلّ بالمدينة من خرابٍ ودمارٍ وآثارٍ قتل، عندها قال أحد عناصر الأمن إلى زميله الجالس إلى جواره في المقعد الأمامي باللهجة العامية: "ربوا أهل حماة لولد ولدهم!..".

عندها.. لمح عنصرُ الأمنِ أميِّ الجالسة في المقعدِ الخلفيِّ وهمسَ في أذنِ صاحبِهِ أن يسكت..

تدلت سماعةُ الهاتف من فوق الطاولةِ بعدها فقد شابُ حمويًّا، يقيم في دمشق، وعيهُ وهو يرددُ على مكالمةٍ تلقاها من أخواتهِ وهُنَّ يصرخن: "لقد هربنا من حماة، ووصلنا حلب مشياً على الأقدام، من قريةٍ إلى أخرى، بعدها قتل جنودُ الأسد كلَّ إخوتك الذكور أمامَ أعيننا!!..".

قبل الواحدة ظهراً عام 1982م، اعتلى عناصرُ الأمنِ أسطحِ العماراتِ وشرفاتِ المنازلِ في الحيِّ الذي كنا نسكن فيه بدمشق، مطوقين مكانَ الشابِ الذي يريدون اعتقالهِ ولكنهم لم يعثروا عليهِ، وعندما طاردوا شقيقهِ الأصغر وهو فتىً في الرابعة عشرة للقبض عليهِ بدلاً من أخيهِ، صعد الفتى سطحِ العمارةِ وألقى بنفسهِ من الطابقِ الخامسِ، تاركاً لهم حسراة الإمساك به حياً..

كان أمراً يومياً في دمشق وغيرها أن يوقف أحد عناصرِ الأمن حافلةِ النقل العام، ويصعد إليها قائلاً: "الكلب الحموي ينزل!..".

في بداية الثمانينيات، إذا تجولت في مدينةِ حلب ونظرت إلى عمارتها، كنتَ ترى طابقاً أو أكثرَ في العمارةِ الواحدةِ، مدمرةً محروقاًً أسوداً، يسمى بها القتلةُ أو كاراً، يقولون إنها تعملُ ضدهم..

سمعَ القتلةُ من عناصرِ الأمن حافظَ الأسد صرخَ طفلَ رضيعَ من بينِ ركامِ جثثِ أسرتهِ، فاستخرجوهُ، وأمسكَ أحدهم بأسفلِ قدميهِ المثبتيين باللفافة وقال له: "قتلنا الجميع، فلماذا أنتَ حي؟!" وبدأ بضربِ رأسِ الطفلِ بالجدار حتى تفتت!

صعدت مهندسةً من حلب إلى منزلها ظهراً، وتوجستَ أمراً غريباً في شقتها الكائنة في الدور العلوي، ثم علمت أنَّ عناصرَ الأمن ينتظرونها، فهرعتَ على الفور إلى أولِ شقةٍ صادفتها ودخلتها مسرعةً لتلقي بنفسها على علوِّ الشرفة إلى الشارع..

في الصباح، كانت الأمهات تخرج لشراء الخضار والخبز وال حاجات اليومية، وأول ما كن يرون سيارات عسكرية تربط في زواياها جثث الشهداء، عراة الصدور، وتنطلق مسرعةً بهم، تسحلهم في شوارع حلب.. لا يضاهي هذا السحل إلا سحل شبان جسر الشغور، أو يزيد عليه..

لقد ضاقت العصابة الحاكمة نرعاً بالإخوان المسلمين رغم المجازر والفضائح المرتكبة ضدهم وضد أهل السنة، حاضنتهم الطبيعية، فلم تجد ما يشفي غليل حقدها عليهم سوى أن تنشر دعاية، في أواسط طائفتهم، تقول: إن الإخوان المسلمين مخلوقات عجيبة يمتلك واحدُهم في كفه ثمانية أصابع بدلاً من خمسة!!

استعان نظام الأسد الأب بالخبراء السوفيات في التحقيق والتعذيب والإبادة، دونما تستر أو حياء، كما استعنوا بأحقاد هؤلاء في ضرب ما يسمونه "مرتكزات الفكر الرجعي"، ويريدون بذلك كلية الشريعة، ودور النشر، والأوقاف، وخطباء وأئمة المساجد، ومدرسي التربية الإسلامية في كافة المراحل الدراسية..

عيثوا بكلية الشريعة فسمموا المناهج، واعتقلوا الأساتذة والطلاب من مقاعد الدراسة وقاعات الامتحانات، في كلية الشريعة وغيرها، ودسووا الجهاز والمفتشين في السلك التدريسي، وأدخلوا أعدادا هائلة من منتسبي حزب البعث طلاباً بعثات داخلية في كلية الشريعة..

ومنعوا كتب الفكر الإسلامي، بل أمهات الكتب المعروفة حتى الفقهية منها، وكانوا يصدرون قوائمهم السوداء، الواحدة تلو الأخرى، بمنع تداول كتب الإمام الغزالي وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم.. ونقلوا مدرسي التربية الإسلامية، ومدرسي الاختصاصات الأخرى الملتزمين، إلى وزارات أخرى، وإلى مصانع ومعامل.. ونهبوا الأوقاف، وحلب كلها وقف، فملأت الأموال جيوبهم من رأس النظام لبقية العصابة..

كانت سيارات مخابراتهم تقف على أبواب المساجد مفتوحة الأبواب لملئها بالمصلين الخارجين من صلاة الجمعة.. وأغلقوا المساجد في وجوه الناس، فلا تفتح إلا وقت الأذان ولمدد محدودة..

لم تكن ذاكرتي مستودعاً ترقد فيها أحداث الثمانينيات وما قبلها مما كنت أسمعه بعدها ُجِدْت في هذا العالم، بقدر الإضاءات التي ألقتها هذه الأحداث على ما يجري اليوم.. بل إن ما يجري اليوم هو حصيلة طبيعية لما كان بذلك الأمس..

المصادر: